بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

{يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ}

بقلم: سيف الدين الأنصاري

بعيدا عن أعراف العقيدة "الإنسانية" التي تعتبر إهلاك الدول الكافرة حالة مأساوية تتطلب منا نوعا من المشاركة الوجدانية، وتستدعي جوا من الحزن على الخسارة التي تطال الحضارة البشرية، بعيدا عن هذه النظرة التي تاله الإنسان ولا تفرق بين المؤمن والكافر، أريد أن أؤكد على أن إهلاك الكافرين حقيقة لا تقبل الجدال ولا المماحكة، وأنها سنة قدرية قائمة على امتداد الزمان.

لكن تجدر الإشارة إلى أن الإهلاك القدري الذي يأتي في شكل استئصال كامل للأمم الكافرة قد توقف بعد نزول التوراة، أي منذ زمن موسى عليه السلام.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى} [القصص:43]، قال ابن كثير: (بعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة) [التفسير: 3/246].

طبعا سنة الإهلاك لا تزال قائمة ومستمرة، تماما كما كانت قبل نزول التوارة، والذي تعدل هو أنها لم تعد تتجسد في شكل استئصالي يعم جميع أفراد الأمة الكافرة، وإنما صارت تتجسد في شكل عذاب يمحق الله به الكافرين، إما بإزالة دولتهم وإما بما هو دونه، ولكن على العموم لا يمحيهم جميعا من الوجود.

وكما قلنا سابقا فإن القرآن عندما يضع هذا العذاب في إطار العلاقة الوطيدة بين الجزاء والعمل، وأن سوء الأعمال يقابله سوء المآل، ليس في الآخرة فحسب، كما يتصور كثير من الناس، وإنما في الدنيا قبل الآخرة، {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ} [الرعد:34]، عندما يفعل هذا ويركز عليه، يريد أن يرسخ تلك الحقيقة القدرية القاضية بإهلاك الكافرين، وأن يعمقها في وعي الجماعة المسلمة لتستعين بها في قراءتها للأحداث، ولتفتح لها نوافذ الأمل المبني على اليقين بحتمية زوال دولة العدو.

لكن من الملاحظ أن الإيمان بهذه الحقيقة قد تحول عند البعض إلى عقاقير مُسكِّنة، لا يؤدي تناولها إلاّ إلى حالة من "التنفيس" وجو لاستلهام الأفكار التواكلية، إذ في الوقت الذي يباشر فيه العدو عملية الاستعمار والدمار، ويجتهد في امتلاك أدواة القوة وآليات التنفيذ، نجد البعض قد انشغل عن المواجهة والدخول إلى معترك الصراع بالحديث عن تراكم عوامل السقوط الحضاري في المجتمعات الغربية، ليخرج من خلال دراسات طويلة ومتكررة إلى نتيجة صحيحة ولكنها تطرح بطريقة مخدِّرة، توحي للمسلم بالإعفاء من المسؤولية تحت دعوى أن الله قد تكفل بإهلاك الكافرين.

لا أريد أن أقلل من شأن الدراسة العلمية لعوامل السقوط الحضاري، إذ من المعلوم أن لها فوائد كثيرة، أقلها أخذ العبرة لتفعيل سبل الوقاية والتدارك، ولكني أريد أن أشير إلى خطورة القراءة الصوفية للحقائق القدرية، لأنها تخرج المسلم عن دائرة الاستجابة للشرع، وتحوّله إلى شخصية سلبية، لا تتحرك لإحقاق الحق ولا لدفع الباطل، وإنما تعيش في أجواء حالة من الانتظار السلبي تُغلف - دائما - بدعوى الاطمئنان إلى قدر الله!!

عندما أخبرنا الله بحتمية إهلاك الكافرين لم يجعلها من المفاهيم الضبابية المطروحة بشكل مبهم وإنما أوضح أنها تتحق بأحد أمرين: إما أن تكون بفعل الله مباشرة، فتقع بأمر قدري من عنده، وإما أن تكون بفعل الجماعة المسلمة فتكون استجابتها للأمر الشرعي أداة لتحقيق السنة القدرية، {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [التوبة:52].

نعم قد تزول دولة الكفر بأسباب قدرية خالصة، ولكن هذا الزوال لن يقابله مجيء الدولة الإسلامية، أبدا، بل ستزول في هذه الحالة لصالح دولة كافرة مثلها أو أسوأ، ربما لأن الثانية أعدل، أو ربما لشيء آخر.. لا يهم الآن، المهم أنه إذا أزيلت الدولة الكافرة بعوامل قدرية فلن يكون البديل هو دولة إسلامية، لأن الدولة الإسلامية مرادة لله شرعا، ولذلك لن تكون إلاّ بفعل الجماعة المسلمة.

ولهذا فإن عقيدة "دولة الكفر زائلة لا محالة" تفتح لنا نوافذ الأمل، وتضع لنا الهدف في دائرة الممكن، ولكنها لا تزيل لنا دولة الكفر، بل ولا تؤثر فيها!! فهي مجرد عقيدة، إذا لم يصاحبها {بِأَيْدِيكُمْ} تظل أفكارا رائعة تتحرك في

الأجواء النظرية، وأحلاما جميلة تثير المشاعر الوجدانية، ولكننا عندما نستيقظ سوف نجد أن دولة الكفر لا زالت قائمة.

إن الباطل لا يُزهَق لصالح الحق إلاّ عندما يتحرك الحق، فيأتي {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: 81]، بل ولابد أن تكون هذه الحركة ممتلكة لكل الممكن من عناصر القوة، بحيث تشبه القذيفة في قدرتها على التأثير وفي سرعتها نحو الهدف، عندها يُزهق الحقُ الباطل، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء:18]، أي أنه لابد لإزهاق الباطل من السعي لامتلاك القوة التي تدخلنا في دائرة الفاعلية، أما الاستغراق في إثبات الموقف الرافض للباطل والتطلع إلى التغيير وإزالة دولة الكفر بانتظار المعجزات فأفكار خيالية لا يليق أن تنسب إلى الإسلام.

وهذه الحقيقة التي تنص على أهمية الجهد البشري في محق الكافرين، هي التي أراد الله أن يعلمها للجماعة المسلمة في غزوة أحد، إذ كان البعض يظن أنه من مقتضى كونه على الحق أن يَهزم - حتما - العدو الذي على الباطل، فدفعت الجماعة الثمنَ غاليا، وتعلمت أن التفريط في الأخذ بالأسباب التي تدخل تحت القدرة لا يحول دون دحرنا للباطل فحسب، بل قد يؤدي إلى غلبة أهل الباطل على أهل الحق!!

إن البعض ينتظر من الحق - ما دام هو الحق - أن يعمل في الحياة بطريقة سحرية، فيقضي على الباطل بكيفية غامضة، تتجاوز الأسباب، ولا تتأثر بالجهد البشري، ولا بالسنن التي تحكم الحياة.

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، بل على العكس يلاحظون أن نتيجة الصراع تتأثر بمستوى ونوعية الجهد الذي يبذله البشر، حين يرون هذا.. فإنهم يصابون بخيبة الأمل غالبا ما تؤدي إلى الشك في إمكانية الانتصار على الباطل.

ولذلك فالروح الانهزامية التي تغلغلت في شريحة واسعة من أبناء الأمة تدعو إلى وقفة جدية لإعادة النظر في المخزون الفكري الذي ورثته الشخصية الإسلامية خلال المرحلة الماضية، إذ يبدو أن هناك حالة اختراق فكري شوشت على الكثير من المفاهيم الإسلامية صفاءها،

وأفقدتها نقاءها الأصيل، حتى لقد أصبحنا نسمع عن التغيير الإسلامي على طريقة غاندي مع تطوير جديد في اتجاه السلبية.. ربما فرضته ضرورة المراجعات الفكرية!!

الذي أريد أن أثيره في وعي المسلمين هو أنه لابد أن نتخلص من التفكير السلبي الذي يجعلنا نحذق في الآخر لاكتشاف عوامل السقوط في دولته فقط لنسارع إلى تسجيلها في ساحة الصراع الفكري، وأنه لابد من الانطلاق للمواجهة من خلال إشاعة جو الإحساس بالمسؤولية عن إزالة دولة الكفر، بحيث نترجم الموقف الرافض للباطل بالمشاركة الفعلية في صناعة المستقبل، بعيدا عن منهجية البكاء على الأطلال، فهناك فرق كبير بين الفكرة في عالم الرغبة والفكرة في عالم الواقع، والمطلوب إسلاميا هو أن نتفاعل مع الحياة كما هي، أي كما خلقها الله، بعيدا عن التحليق في أجواء "المدن الفاضلة".

ويحلو للبعض أن لا يفوته - وهو يتناول الموضوع - التركيز على المعاني الروحية، فيثير مسألة الإمدادات الربانية التي تخترق القوانين الكونية، وأنه لابد من استحضارها عند المعالجة، وأنا إذ أقر بهذه الإمدادات التي يفتح الله بها على من يريد من عباده الصالحين، فإنني أحذر بشدة من النظر إليها كبديل عن الفاعلية البشرية، بحيث يتم التعامل معها على أساس أنها القاعدة العامة التي يجب الاعتماد عليها في مقابل الأخذ بالسنن، فهي إمدادات ربانية تأتي من الله تفضلا، وبعد الجهد البشري، وفي الوقت الذي يريد الله، وللحكمة التي لا يقدرها على وجه التحديد إلاّ هو سبحانه.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: بماذا يمكن أن يتحقق هذا العذاب الذي يريد الله أن يكون بأيدينا؟

ولا أريد أن ألوث عقلية القارئ بـ"إبداعات" الفكر الغنوصي الذي ينظر إلى المسألة من خلال فلسفة الانهزام فيطرح العذاب على أنه نتيجة يمكن تحقيقها عن طريق العمل على تحريك وجدان الآخر بالامتثال لصور التعذيب التي يمارسها علينا و"الصبر" عليها حتى يصل العدو إلى حالة الندم فيصاب بعذاب الضمير..!! لا تشغل بالك، فهذه مجرد لفتة مقتضبة لنموذج من الأفكار الخرافية التي تنخر في جسم الأمة من الداخل.

المهم، حتما لن يتحقق ذلك العذاب بالدعوة، لأن الدعوة عبارة عن عملية بيان تستهدف توضيح الحق بطريقة تجعله أدعى لأن يُقابَل بالقبول، وليس في هذا أي لون من ألوان العذاب. وإنما الذي يحمل العذاب بأيدينا هو الجهاد.

بالجهاد يعذبهم الله بالقتل.. بالجهاد يعذبهم الله بالجراح.. بالجهاد يعذبهم الله بالأسر.. بالجهاد يعذبهم الله بذهاب الأموال.. بالجهاد يعذبهم الله بذهاب السلطان.. إذن بالجهاد يعذبهم الله، أي بالحرب الساخنة التي تستمد حرارتها من أجواء الجبهة العسكرية، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} [التوبة:14].

قال ابن كثير: (بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله) [التفسير:3/391].

طبعا ليس القصد هو أن نلغي دور الدعوة ولا أن نحد منه، أبدا، فنحن عندما نركز على أهمية الجهاد في تحقيق سنة الله القدرية وإرادته الشرعية لا نريد أن نجعل الجهاد بديلا عن الدعوة، كلا، فكل منهما واجب شرعي، ولكل منهما دوره في مشروع التغيير الإسلامي، ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما بالآخر في صراع الحق مع الباطل، ولكننا نريد من خلال هذا التركيز أن نلفت نظر العاملين إلى خطورة إلغاء الجهاد عند تحديد منهج التعامل مع الدول الكافرة، وأنه سير في الاتجاه المضاد للسنن القدرية والأوامر الشرعية.

فالقوة المادية تصرعها القوة المادية، والقوة الفكرية تصرعها القوة الفكرية، والصراع على المستوى المادي يتحرك بكل وسائله وآلياته في دائرة الجهاد، والصراع الفكري يتحرك بكل وسائله وآلياته في دائرة الدعوة، ومن الخرافة أن نعتمد على "استراتيجية" قوة الحق لمواجهة طائرات "F16".

إن الله قادر على أن يهلك عدوه بلا واسطة أحد، وبلا معونة أحد، فقدرته مطلقة لا يعجزها شيء، وهذه الدول الكافرة رغم كل مظاهر القوة التي يمكن أن تمتلكها ما هي إلاّ حفنة من الخلق، على ظهر هباءة اسمها الأرض، تتحرك في عالم كبير تكاد تكون ضائعة لولا {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} [فاطر:41]، ولذلك فهو حين يجعل للمؤمنين دورا في إهلاك الكافرين، ويسند

إليهم مهمة إزالة دولتهم، إنما يتخذهم ستارا لقدرته، ولو شاء لانتصر منهم مباشرة، كما انتصر من غيرهم بأسباب قدرية، بل ومن غير أسباب أصلا، ولكنه إنما يريد من وراء اسناد هذه المهمة إلى الجماعة المسلمة أن يبتلي بعضهم ببعض، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض} [محمد:04].

فهو الابتلاء.. ابتلاء المسلمين بالكافرين، وابتلاء الكافرين بالمسلمين.

أما ابتلاء المسلمين، فلكون السير في طريق الجهاد أداة لتمييز المؤمنين من المنافقين، ومجالا لاستخراج حقائق الناس واكتشاف المخبوء من شأنهم، ثم هو - كذلك - أداة لتمحيص المؤمنين، ووسيلة لصقل شخصياتهم، به تتم التربية على مجاهدة الهوى، وعلى التضحية، وعلى البذل، وعلى الوفاء، وعلى معان إسلامية كثيرة لا يتذوق طعمها إلاّ المجاهدون.

وأما ابتلاء الكافرين، فأولاً لكون الجهاد درسا نموذجيا في القيم، تقدمه جماعة من طلائع الأمة الإسلامية تقديما عمليا، فيتزعزع الكثير من الكافرين، ويهتز كيانهم النفسي، وربما يتوب بعضهم عندما يستوعب الدرس. وثانياً لأن الجهاد طريق للانتصار عليهم، ولعله بهذا الانتصار تستيقظ فطرتهم، وتكون لهم فيه عبرة وعظة، فيردهم ألم العذاب إلى الصواب، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [السجدة:21].

إنها الحكم الربانية المبثوتة في ثنايا السنن..

بقي أن نشير إلى التناسق العجيب بين أحكام الله في خلقه، والانسجام الكامل بين القدري منها والشرعي، فإهلاك الكافرين سنة قدرية ماضية إلى يوم القيامة، وهي في جزء كبير منها لا تتحقق إلاّ بأيدي المؤمنين، أي بالجهاد، فكان الجهاد كذلك ماضيا إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: (والجهاد ماض إلى يوم القيامة) [البخاري]، وتكفل لذلك ببقاء الذين يجاهدون في سبيله، قال عليه الصلاة والسلام: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق يقاتلون) [الترمذي].

واستمرار الجهاد هذا خاضع للعناية الربانية، ولذلك لا يمكن أن توقفه التصريحات الأمركية التي تردد دائما

"القضـاء علـى آخـر فلـول القاعـدة وطالبـان"، ولا تغييـر المناهج التعليمية في المدارس الدينية، ولا سياسة تجفيـف الينابيع والتضييق على العمل الدعوي، ولا غيرها من الجهود البشرية، ونحن نؤمن يقيناً أنها حتما ستبوء بالفشـل، ليـس إيمانا سلبيا، لكنه الاطمئنان إلى النتيجة التي تتحق إن شـاء الله {بِأَيْدِيـكُمْ}.

عن مجلة الأنصار

تم تنـزيل هذه المادة من
منبر التوحيد والجهاد

sw.dehwat.www//:ptth
moc.esedqamla.www//:ptth
ofni.hannusla.www//:ptth
moc.adataq-uba.www//:ptth